# هوس الشرّ في غسق الجحيم الأميركيّ
# هيروشيما، ملجأ العامريَّة؟ رام اللَّه وأرض البشر

لطفيّة الدليمي

مفتونةً ببأسها الكونيّ ومتطرفةً في التأنسن الشرير، تَدْخل أميركا عماءَ الصعاب في غسق حضارتها الأخير.

عصرُها العنيف يبثّ موسيقى الفوضى والخراب في أقاليم الشرق والعرب، ليَنْحدر الجنسُ البشريُّ إلى احتمالات الانقراض.

عندما تتحدَّث أميركا المستفيقة من ١١ أيلول عن الشرّ، تَهْطل المقابرُ من كلماتها، وتُمْطر الآفاقُ العالميَّةُ نُعوشًا تَخْفق وراءها أعلامُ الدول متبوعةً بصهيل القذائف.

تتحدَّث أميركا هنا وهناك مع نُصُبٍ ومومياءات تَرْشق القولَ وتَصْمت. تتحدَّث أميركا مع الأشباح، مع سَدَنَةٍ مزيَّفين. فيَنْزعج الحاضرُ العربيُّ في نومته المريرة، وتسحبُ أصابعُه أطرافَ الكوفيّات على العيون المطْبقَة، وتغمغم الأصواتُ الوسنانةُ بنبرة مُفَلْتَرَةٍ متوسِّلة:

ـ هلاّ كَففتِ يا سيّدتنا المباركة عن الحديث؟ دعينا نكملْ نومَنا الشهيَّ على ذراع أحلامك. هلاّ تركتِنا نستلقِ في فراديس ممالكنا قبل زوالها ونمنحك توكيلاً إلهيّاً مؤبَّدَ المفعول لتتدبَّري عنّا شؤونَنا وشؤونَ العالم بكفالةِ ما تشتهين من الثروات والمناجم؟

وتَمْضي أميركا في حديث الشرّ المثير، حاكمةً بأمر الفناء. وتتعالى سحائبُ الموت ما بين كفَّيْ بغداد وقلبِ رام اللَّه. عندئذ تُمْطر ذاكرةُ المقاومة أولادًا يترنَّحون ما بين الدم والحجارة، ورجالاً يَنْسفون نظريَّةَ الشرّ من أول تاريخ الكهانة حتى شرفات هانتنغتون ونوافذ فوكوياما الموصَدة. تُمْطر ذاكرةُ الأسى، وذاكرةُ الرسالات والغد، بناتٍ يسجِّلْنَ تاريخَ الأُمَّة الملتبسَ بمدائحَ من شهيداتٍ وأسفٍ ومستقبل.

تقول أميركا في هذر المصعوق:

ـ الناس هنا ليسوا في حاجة إلى شيء سوى قنابلنا النوويَّةِ الرحيمةِ التي ستَهبهُم موتًا مجانيّاً صاعقًا بديموقراطيَّة فذّة.

الناس ليسوا في حاجة إلى شيء غيرِ وليمة احتضارٍ في بهاء الإشعاع الكبير الذي سيضيء ما بين النهرَيْن ووادي رَم وما بين جبل الأرز وشعابِ مكّة وغوطةِ الأمويِّين ووادي الملوك وسدّ مأرب.

هكذا سَأَهَبُ الناسَ ثروةً من ضوء مشعّ، وسحبًا بهيئةٍ جزيرةٍ طافيةٍ في الهواء بدرجة حرارة صاهرة. سوف أَمْنح البشرَ مصائرَ تُنْقذهم من وباء الماضي ووجعِ الذاكرة، وتقود ما يتبقّى منهم إلى حظيرة الحريَّة. سيَعْبرون معي من الموت إلى الرماد، ومن الألم إلى حريَّة الخرس. هكذا نَصنع سلطةَ السلام ليعمّ الخيرُ عالمًا جاحدًا أَمْنحه التقنيَّةَ والقمحَ والسلاحَ فيطعنُ في غفلةٍ من طقوس الشكر أبراجَ المنايا في مدينتي الكوزموبوليتانيَّة العظمى.

هيّا، إنْ لم تساندوني فإنّي كفيلةٌ بتحويل الأمل إلى حرب مؤبَّدة. سوف أُلْزمكم مستقبلَ الكارثة، وأُطْعمكم كعكةَ الشرّ المرقّشة بأيقوناتِ عصري، كعكةً لم تتذوّقوها قبل سلطةِ الصورة وفخاخِ المرايا. سوف تتحوّلون من رهاب الحياة وإرهابها في بلدانكم إلى عقلنة الموت اللامرئيّ. هي ذي نهايةُ التاريخ الرثّ لعوالمكم المنقرضة. وستعترفون بأيقونتي الخيِّرة وبتدويني بدايةَ تاريخٍ جديدٍ للعالم ينمو في قبضتي النوويَّة. أنا مَنْ يَصْنع النهاياتِ والبداياتِ والتحوُّلاتِ من حقبة إلى أخرى، وأنا مَنْ يَحْفر وشمَ التأسيس الجديد على لحوم الأمم.

فاغتنموا السلامَ المنزَّهَ عن إرهابكم، وتجوَّلوا بين أنقاض ماضيكم وأطلالِ حضاراتكم البائدة وحاضركم الهشّ الذي انقضى تاريخُه وغيَّبَه الزمانُ في المدوَّنات الخرافيَّة.

خُذوا حريَّتَكم. فأنتم الآن أحرارٌ في قَضْم تفّاحة المستقبل إذا واريتُم جثَّةَ أوهامكم وثقافاتكم المتعظِّية ومضيتُم في مسار العاصفة الضوئيَّة، حيث يتطابق المعقولُ مع الواقع وتمتدّ نهايةُ التاريخ في لحظتها المطلقة إلى ما لانهاية بعد انهيار الإيديولوجيّات واليوتوبيّات والتشكُّلات الزائفة لأحلامكم.

هيا انغمسوا معي في النسيان، وحرّكوا ذبذباتِ النخاع الأخيرة في زمنٍ بلا حدود. ها أنتم تَرَوْنني أقدِّم لكم الحاضرَ في قنبلةٍ وقبضةِ طحين، لتستغرقوا في الخلود وتساندوني في نسج سلامِ العالم من خشخشة الأكفان ورقصةِ الواقع واحتضارِ التاريخ.

# هوس الشرّ في غسق الجحيم الأميركيّ
# هيروشيما، ملجأ العامريّة؟ رام اللّه وأرض البشر

مدّوا أيديَكم بعلامة الظَّفر. مدوا أصابعَكم من ثقوب النعوش، وأشيروا إلى طرقاتي الساطعة. اصطفافًا اصطفُّوا وراء دلالاتي، وبشروط إنكاركم لإقامتكم العتيقة في اللُّغة: فأنتم كائناتُ الصوت والصدى والغياب.

اتبعُوني... أو البثوا في ضفّة محور الشرّ، وعندئذ لن تنالوا مغفرتي ولا لقمةَ الزاد ولن تفوزوا حتى بلذّة النوم على شظايا قنبلةٍ حنون.

## هيروشيما

كتبِ القائد الياباني جاساتاكي إكوميا في تقريره عن رحلته إلى هيروشيما مساءَ قصفها:

«عندما وصلنا هيروشيما كانت الشمسُ قد جنحتْ للمغيب. ولكنْ في اليوم الثاني كان يَنْبعث من المدينة ضوءٌ مروِّعٌ مخيف: إنَّها هيروشيما المشتعلة، ونيرانُها تَعْكس أضواءً قانيةً كالدماء المرتجفة المصحوبةِ بالدخان الأسود وهو يتصاعد من الأرض.

اختفى المطارُ تمامًا، وشاهد رجالُنا المحلِّقون فوق أواكوني الانفجارَ الرهيبَ على مبعدة خمسةٍ وخمسين كيلومترًا. فقد أرسلناهم لنجدة القوات ولكنَّهم لم يتمكَّنوا من الوصول إلى هيروشيما لأنَّ اللهب طَوَّقَ المدينةَ من كل الجهات وعادوا وقد احترقتْ جلودُهم.

وفي الصباح التالي اقتحمْنا هيروشيما ولم يعد هناك أيُّ شيء. كان العدمُ بطلَ الزمن الجديد.

أفنت القنبلةُ هيروشيما، ولم يتبقَّ في الفضاء بعد رحيل نبتة الفطر النوويَّة العملاقة سوى صرخات عشرات آلاف الضحايا التي تَبْحث عن غوث ومنقذين. واختلط رمادُ المباني بالأجساد المحترقة. والتوت عظامُ الضحايا، واعوجّت الأذرع، وجفَّ الماءُ من المدينة، ولبث الضحايا يحترقون أحياءً ويتّكئون على موتاهم. ثم جرى تدوينُ الأحياء، ورُتِّبتِ الجثثُ صفوفًا صفوفًا حتى نهاية الموت.»

هيروشيما التي سبقتْ، هيروشيما التي بقيتْ، هيروشيما التي فرّختْ في بلداننا وأجسادنا كوارثَ السلام لأنَّ الحروب فقدتْ دلالةَ المعنى وماتت اللغاتُ بموت المدلولات.

هيروشيما صحراء نوويَّةٌ ذائبة، والمصوِّر الأميركيّ يلتقط صورَ الحدث مبهورًا بالنتائج.

يقول أحدهم:

«لم يكن أمرًا عاديًا. لقد مات مئاتُ الآلاف، ولكنّ أميركا انتصرت. ولو طلبوا منِّي اليومَ أن ألقي قنابلَ هيدروجينيَّةً، إذنْ لفعلتُ من أجل أميركا. وليمتْ مئاتُ الآلاف من جديد.»

شمسُ القتل باهرة، والمدينةُ مُحِيتْ بضغطة زرّ على جهاز إرسالٍ لاسلكيّ أَرْسَلَ القنبلةَ لتفتحَ بابَ الجحيم على مصاريعه الأمميَّة.

ضفائرُ النساء تساقطتْ على رصيف الموتى. كدّسوا شعرَ النساء وسطَ الساحة، وحَبَكوا منه ليلاً يابانيّاً حالكًا، وتوّجوا الليلَ بجمجمةِ طفلٍ مفزوعٍ وقمرٍ جريح.

فراغُ السلام لم يكن أبيض. فراغُ القنوط كان رمادًا حاولوا إخفاءه بتلالٍ من زهور الأقحوان البيضاء. قطعانُ زهور مالحة ترعاها فتياتٌ عمياوات يُرْضِعن أطفالاً خرجوا للتوّ من رَحِم سحابة الموت النوويَّة بأظلافٍ وذيول. وعن قرب، امرأةٌ تمزّقتْ أحشاؤها واندلقتْ مع جنين تدحرج على التراب المملَّح بالإشعاع.

## من دفاتر ملاحظات طاقم طائرة إينولاجاي التي ألقت أولَ قنبلةٍ ذريَّةٍ على هيروشيما

«.. قال فيربي: بقي من الوقت دقيقتان ـ أوكي، لقد نلتُ منها. وجلس أمام زناد قنبلته النائمة على جحيم محبوس.

كانت الطائرةُ على بعد أربعين ميلاً من الهدف لحظةَ إطلاق الإشارة اللاسلكيَّة، ولم يكن أحدٌ يَعْلم ما سيحدث بعدُ في اللحظة التالية. اخترق ضوءٌ خاطفٌ كالسِّهام نظّاراتِنا الجلديَّةَ، وغمر هذا الضوءُ المكانَ بأسره ثم انتشرتْ في السماء أشعةٌ رهيبة ونفذتْ حرارتُها إلى قمرة الطائرة مثلَ سيلٍ جارفٍ أعمى انهَمَرَ فوق

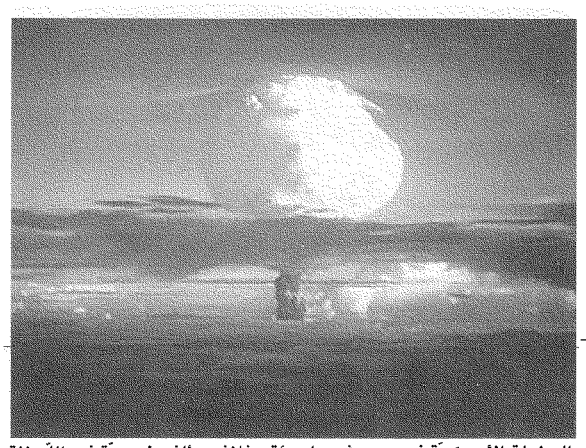

**البطولة الأميركيّة في هيروشيما: مئة وثلاثون ألف ضحيّة في اللّحظة الأولى**

سطح الطائرة واقتحمها. لم يكن هناك أيُّ تفسير: فلم يسبقْ لعينٍ بشريّةٍ أنْ رأت مثل هذا الجحيم.»

وكتب الكابتن لويس مساعدُ الطيّار:

«.. إنّني أتمزّق بينما نَقْصف هدفَنا بالقنبلة. أَبْحث عن الكلمات فلا أجدها. همستُ: يا إلهي ماذا فعلنا؟ إذا ما عشتُ مائة عامٍ فلن تُمْحى من ذاكرتي لحظاتُ الجحيم هذه...

لقد أُصِبنا بالعمى. ولم نستطيع رؤيةَ شيءٍ لشدّة الوهج، مع أنّنا ألقينا القنبلةَ من ارتفاع ستة آلاف متر. ثم رأينا ما لا عيْن رأت وسمعنا ما لا أُذن سمعتْ. لقد حدث برقٌ مروِّعٌ إثر الانفجار، ثم ضوءٌ خاطفٌ، وظهرت السحابةُ النوويّة على شكل نبتةِ الفطر العملاقة، وبدا سطحُ مدينة هيروشيما مثلَ بحرٍ هائجٍ من الاسفلت المغليّ. وقلتُ شيئًا.. بل فكرتُ بأمر تلك الخنازير المسكينةِ التي تلتهمها الكارثةُ تلك اللحظة.»

الخنازير المسكينة التي فكّر بها الأميركيُّ «الطيّب» كانت مئة وثلاثين ألف ضحيَّة يابانيَّة احترقتْ في اللّحظة الأولى، ونثروا رمادَ الضحايا على شرفِ البطولة الأميركيّة في ساحات الألم.

وقال الرئيس الأميركيّ ترومان:

«... لقد وجّهنا القنبلةَ الذريَّةَ إلى أولئك الذين اعتدَوْا علينا دون سابق إنذار، وضدَّ مَنْ لم يحترموا القوانينَ الدوليَّةَ، لنحميَ الآلافَ من الشباب الأميركيّ. ونرجو من اللّه أن يوفّقنا لاستخدام القنبلة الذريَّة في هدفها المحدَّد...»

الخنازير اليابانيّة ـ التي احترقتْ في مدينة تغلي ـ كانت في عرف الأميركيّ الخيّر كائناتٍ دنيا لا يَجْدر بها أن تحيا في عالمٍ واحدٍ مع الأميركان السوبرمان. اليابانيّ، وكذلك العربيّ والمسلم، العراقيّ والفلسطينيّ والأفغانيّ والفلبينيّ والمصريّ والليبيّ والسوريّ والصوماليّ والصينيّ والإفريقيّ والكوريّ، إنّما هم كائنات رقميّة لا وجودَ لها حقيقةً على الأرض، وإنّما لها موقعُ متّسع في الآخرة ـ أعني الجحيم، لأنّها كائناتٌ شريرةٌ يشكّل وجودُها على الأرض فضيحةً للعصر ما بعد الحداثيّ. وأميركا مُوكَلَةٌ الآن بتطهير الأرض من البشر والفضيحة، مثلَ رسولٍ دجّالٍ يرى العالمَ بعين واحدة، ويُطْلق رصاصةَ الخير على فصيل الأشرار الذي يشكّل ثلثيْ سكّان العالم. وبعضٌ منّا، نحن العربَ، هنا وهناك، في البلاد التي تتاخى في التصريحات مع جنرالات السلام والخير، يتوقون إلى النجاة بإعلانِ البراءة من الحياة، وإعلانِ البراءة من القيمة، وإعلانِ اليأس من جذورهم وعصر الظلام، ويتوقون إلى إلقاء مستقبلهم الغامض بين أصابع الحلم الذي تهاوى.

## العامريّة

االساعة تشير إلى محاق الهول الأخير. البلادُ في محاق القمر. القمر يغفو منسحبًا إلى رماده وينام على وسادة من أحلامنا المسروقة وأسماءِ موتانا. الموتى يحلّقون فوق جحيم القصف. سبعون ساعةً من القصف: هل بقيت السماواتُ سبعًا طباقًا؟

الأبواب تتساءل من رجّة الانفجار:

ـ هل لديكم معاطفُ واقيةٌ من الخلود؟

يصرخ جلجامش من وراء مياه الموت:

ـ هل يَمْلك الصغارُ مرهمًا ضدّ الدود، أو طوّافاتٍ مطاطيّةً ضدّ الغرق في الدم؟

تقول له البنتُ الصغيرة التي تساقط شعرُها بالعلاج الكيمياويّ:

ـ أتَدْري يا عم جلجامش أنّهم انتهكوا براءتي باليورانيوم؟ أترى ما أَحْمل بيدي. لقد باعت أمي قميصَ أبي الميّت لتشتري لي مرآةً تأخذني إلى المستقبل.

ـ الأشجار تمتصّ الليل بدل الأوكسجين، وتخبئ النجومَ في جذورها. السقوف تصير شفّافةً لفرط الوميض. السقوفُ تنسى وظيفتها فتتضامن معنا، ولا تدرك أنّها المخوَّلةُ بالإجهاز علينا إذا داعبتْها قذيفةٌ لامعة. أين نهرب من سقوفٍ لا تدير اللّعبةَ كما يَنْبغي لبيوتٍ عزلاءَ إلاّ من النصوص؟

# هوس الشرّ في غسق الجحيم الأميركي
# هيروشيما، ملجأ العامريّة؟ رام اللّه وأرض البشر

ـ عند الانفجار العاشر يتصدّع جدار. ينهمر زجاجٌ. تنغلق الأرضُ، وتستوي وردة كالدهان. نفرّ ضاحكين لفرط الهلع. الروح تتهجّى السؤال بين الجدار المفطور وصدى الانفجار:

ـ هل تعرفون لماذ نَرِثَ الموتَ ولا نموت؟

لا أحد يُعنى بالإجابة، فكلنا نعلم أنّنا الوارثون!

سبعون وقتًا للقتل. خمسمائة غارة. مائة ألف فرصة للتخفُّف من الجسد والتحوُّلِ إلى هياكل من طباشير تنثّ البياضَ على أروقة الأمم. خمسون ألف اقتراحٍ لمقابر عصريّة تَدْخل إلى دوراتنا الدمويّة فنَزْفر شاهداتٍ من رخامٍ وأكاليلَ من زنبقٍ مدمّى.

يقول الأميركيُّ الأشقر للأميركيّ الأسود، وهو يتلمّس الجسدَ المدملج لصاروخٍ مهيّإٍ للإطلاق من سفينةٍ في بحر العرب:

ـ القمرُ في المحاق. حسنًا سنضيء ليلهم بملايين الدولارات الحارقة. هل تكفي مائة صاروخ لليلة واحدة؟

ـ أظنُّها تكفي. أجل تكفي لإضاءة المدى بين درب التبانة ونهر الفرات.

ـ لعلّها تكفي. دع المتبقّي من القذائف لنزهةٍ تاليةٍ فوق برج بابل وبوّابات نينوى والقصر العبّاسي.

الآن، وفي كل آن، كان للزمن أن يبقى. تهزّ أميركا جديلةَ الهنديّ الأحمر وجلدَ رأسه المدبوغ على عصًا من الألكتروم. ثم تضع قدميْها على ظهر الصحراء و«لسان العرب.»

تقيم سرادقاتٍ ملكيّةً لقادة الموت، تَحْرسها قوافلُ من كائنات الرمال. وترسل قذائفَها على هوادجَ لها محرّكاتٌ إلكترونيّةٌ مركّبةٌ في رأس جملٍ من طراز پاترويت متّجهة إلى بغداد.

ابنة الجيران يُغْمى على صباها في انفجارِ آخرِ الليل، فلا تقوم من ثلج جسدها. شظيّة صغيرة تنام في زهرة الجوريّ على صدرها. دعوها.. فعيناها مفتوحتان على بياض النهاية.

أَسْمعُ أثينا تنوح على الوارثين. الصواريخ الفاتكة ميراثُ ألف عامٍ من الفلسفة والديموقراطيّة. وأثينا تنوح على الوارثين. أين بياناتُ أرسطو؟ أين عباءة أفلاطون، وكأس سقرط الأخيرة؟

المدن السبع المقصوفة تَنْفرط في فضاء اللهب. زوايا البيوت تَنْغلق على عتماتها وتطوي الجدرانَ على كنوزنا، حيث خبَّأنا ألواحَ المعرفة ونصوصَنا المخطوطةَ ورسائلَ الحبّ وبياناتِ الغد ولوائحَ الموتى وصورَ المهاجرين وتذكاراتِ الصبا. تَنْغلق الزوايا على وثائق وجودنا قبل أن تقع الواقعة.

## العامريّة ضحكة اليورانيم

قبل يوم أو اثنين، ربما بالأمس في ١١ شباط ١٩٩١، حوّمت الطائراتُ الأميركيّة فوق حيّ العامريّة ـ حيث أقيم. حوّمتْ طوال النهار، ولم تُلْقِ قذائفَها. جحيم الطائرات يدنو من قمم النخل وأسطح البيوت ـ تدور الطائراتُ حينًا فوق الملجإ. يروْنها من شارعنا، ومن باحة مسبح الرشيد، أو من سطح مدرسة سعد بن معاذ. تدور خطفًا، ثم تَخْتفي وتغيب. لكنَّ الموت كان يتثاءب في القذائف المؤجّلة. تسير النساءُ والصغارُ في الموكب الليليّ في الطرقات المظلمة إلى ملجإ العامريّة، وهم يُضَلِّلن البردَ عن أجسادهم. لكنَّ الرجفة تجري في الجوارح، لا من بردٍ بل من توقُّع الموتِ عند كل خطوة وهدير. القصفُ لمّا يبدأْ بعدُ، ولكنَّهم يصلون الملجأ. وعند الباب يودعون فكرةَ الموت على حافات الطريق، ينبذونها مع أعقاب السجائر وقشورِ البرتقال.

في الساعة العاشرة يُحْيون حفلَ عيد الميلاد لفتاة في الخامسة عشرة. يوقدون الشموعَ على كعكة العيد، وتوزِّع الأمُّ قطعَ الحلوى، ويَعْزف فتًى جميلٌ على الأُورغ أغنية «طولي يا ليلة.» زغاريدُ ومخاوفُ وحدوسٌ. والأمّهات يَرْقبن البنات والأولادَ وهم يسكبون الضحكات في جوف الملجإ المضاءِ كأنَّها الينابيعُ تسيل من أعالي الحياة.

تأتي الطائراتُ على متن الظلام، وبغدادُ موحشةٌ بلا كهرباء.

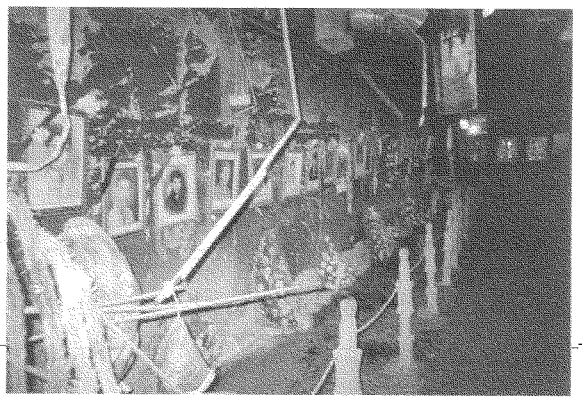

يخترق الصاروخ سقف الملجإ ويَنْفجر، بادئًا فاجعةَ «العامريَّة»

ويهبّ الموت، ويموت الموت، لكنَّنا نَقْدح شررَ الوجود من ضحكاتنا ولعبة الشطرنج. الحرّاسُ يدخلون قلعةَ الشطرنج مع الفتيان العاشقين. لدى بوّابة الملجإ، تنحني البنتُ على حيرة اللاعب الجميل، وتكشّ ملكَ الموت عن فتًى أيقظ فيها الفراديسَ، ثم تَمْتطي الفيلَ في بهجة العرس. وقبل أن تَمْضي إلى هناك، تُلْقي إليّ بكتاب الألم.

## تجيء الضواري

تجيء طائراتُ الضواري الأخيرة وتُطْلِق في الساعة الرابعة فجرَ الثالث عشر من شباط ١٩٩١ صاروخًا يَنْفلق عن ثقبٍ ليزريٍّ لولبيٍّ يخترق سقفَ الملجإ، ليُحدث عصفًا هائلاً تَنْغلق بفعله أبوابُ الملجإ الفولاذيَّةُ العملاقةُ. ويمرّ الصاروخُ الثاني من خلال الخرق الذي أحدثه الصاروخُ الأول، ويَنفجر بادئًا فاجعةَ العامريَّة. يبتدئ جحيمٌ علامتُه «صُنِعَ في الولايات المتحدة،» وجرى تسويقُه عبر المتاجر العالميَّة والعربيَّة. موت، جحيم، خراب، فناء، جثث وأشلاء، دمٌ وأعصاب، لحمٌ متناثر لأربعمائة شخص أو أَزْيَدَ قليلاً (فقد مات عشراتُ الناجين بعد أيام). أجسادٌ احترقتْ وانقذفتْ متفجِّرةً لتلتصق بالجدران، ودرجةُ الحرارة بلغتْ آلافًا من الدرجات المئويَّة. مصهرٌ نوويّ يغلي أذاب كلَّ شيء: أذاب الأسمنتَ والأجسادَ الصغيرة، وتفحمت الأخرى في المحرقة أو نضجتْ في المرجل الجحيميّ.

الموتُ كان متعجِّلاً وهو يَنْشر وجوهَه الكثيرة في زوايا الملجإ. فقد حدَّد بوصلةَ القصف وتوقيتَ الفاجعة، وعَقَد اتِّفاقًا داميًا مع أميركا، ورَسَمَ لها ـ ومعها ـ شكلَ المحرقة، ونفَّذ عهده الوحشيّ بالتمام. تحالَفَ الموتُ الميتُ مع القاتلِ الميتِ، واقتسما الزمن.

انخدع الموتُ بخطّته ذاتها. انخدع بها حتى آخر قطرة دم ولطخةِ نخاعٍ انفجر على جدران الملجإ.

انفرجَ الليلُ عن جهنَّمَ من ابتكارٍ أميركيّ، وانفجر الوقتُ، وتناثرت الثواني مع الدم. مات الزمن. في لحظةِ الحرق تضرّج الليلُ بالدهور العتيقة والكوارث الماضيات. لم تترطَّب الأرضُ بالدم؛ فقد جفَّ كلُّ شيء، وتيبّس واسودَّ كلُّ جسدٍ، وتفتَّتتِ الأحداقُ، وتلطّخ الوقتُ بالعار الدوليّ.

## من العامريَّة إلى رام الله

فاضت أرواحُ الضحايا نحو الأعالي. كنتُ أحلِّق معها. رأيتُ كلَّ شيء. رأيتُ البحيراتِ والريحَ تدوِّم حول المدن وتلفّها بدوّامات من غبار وأشذاءِ برتقال. وكلّما ارتفعنا في فيوض أرواحنا السديميَّة كنتُ أكتشف أعجوبةً جديدة. رأيتُ الظلمات الأميركيَّة تَزْحف على الكوكب الأرضيّ، بينما يتقدّم النهارُ على النصف الآخر. ثم شاهدتُ الطوفانَ والبراكينَ والحرائقَ. رأيتُ معهم في الفضاء العلويّ أرواحًا كثيرة تتفرّج على بؤس كوكبنا. رأينا ما رأينا، ثم أبْصرنا أطفالَ القدس يَجمعون الحجارةَ السجّيلَ من أنقاض الحضارة ويُلْقونها على قتلةٍ مدجَّجين بالخوف من سجّيل الأمل.

ثم رأينا أطفالاً يقومون بخفّة الرؤيا من صبرا وشاتيلا وقانا وتلّ الزعتر، والخليل. ونهض صفٌّ طويلٌ من البشر من رام الله، حتى ازدحمت السماءُ بأسراب الأرواح الراحلة إلى الأعالي وهم يُنْشدون المراثي للكوكب الرامي.

كنّا نطير والقذائفُ تلاحقنا، والصواريخُ العابرةُ القاراتِ تتَّبع مسارَنا متوهِّمةً أنَّنا نترك في الهواء أثرًا حراريًّا يمكن أن تقتفيَه عقولُها الإلكترونيَّة، فكانت تتهاوى في الفراغ وراءنا.

قام أطفالٌ من كل بلاد الشرق المهدورةِ الدم. لحق بنا أطفالٌ من كابول، وأطفالٌ من الشيشان، وأطفالٌ من تيمور الشرقيَّة، حتى سَدَّتْ جموعُ الأرواح أُفقَ الأرض. وتبعنا سربٌ صغارٌ من كشمير. واختلط اللَّيلُ بالنهار، والشرقُ بالغرب، في آونة القيامة الطفوليَّة.

كنَّا نحدِّق من أعالي الحبور، ونرى الحروبَ تتقدَّم في الصحارى مثل الضواري العمياء. كنّا نرى الحمائم تفرّ إلينا وتَحْتمي بأرواحنا التي آلت إلى غمام.

# هوس الشرّ في غسق الجحيم الأميركيّ
# هيروشيما، ملجأ العامريَّة؟ رام الله وأرض البشر

مررنا فوق دلهي وكوالالامبور، ومضينا إلى نجمة القطب. ثم دفعتنا أمواجٌ خفيَّةٌ نحو أقاصي الشمس، فرأينا بركان فوجي ياما... لا إنَّها هيروشيما التي تحترق. استدرنا وعُدْنا إلى فضاءات بلادنا، وانحدرنا جنوبًا نحو بحر العرب الذي تعوم فيه البوارجُ الأميركيَّةُ، وإحداها تَنْفث النيرانَ من ثغره في جانبها وقد توهمتْ وجودَ جنة عدن هاهنا، لكنَّها بوغتتْ بجحيمات الثأر.

رأينا ما رأينا، ورأينا ما لم يحدثْ بعدُ. وكنّا نرى الأحداث تأتي من الغيب مكتملةً بالأسباب والخواتيم. فلم نشأ أن نفهم، لأنَّنا لا نرى أن نكدِّرَ حبورَنا الروحيَّ ونحن نطفو فوق عالم الحروب والطوفان والحرائق.

**الساعة لم تُخطئ**

بل تنذرنا الساعاتُ بمخاطر قادمة. حروبُ الإبادة تتواصل، والقتلة الأبديُّون يَخْرقون مرايا الوقت إلى ذاكرتنا. والصغارُ يتكررون ويتكاثرون في الحياة والموت ما بين بغداد والقدس ورام اللَّه وبيت لحم وبيت جالا وغزّة. مرايا الوجود تكرِّرهم في كل مدينة، مثلما تكرِّرهم غرغراتُ الموت. والساعةُ ما أخطأتْ أبدًا، إنَّما هي تدقّ دقّتها المُنْذِرةَ لتوقظ مَنْ ينام على الخديعة. تُنْذره بما لم يَحْدثْ بعدُ لأيَّامنا.

يمرّ صفٌّ من شباب معصوبي الأعين وقد وَشَمَ السجّانون الصهاينةُ على أذرعهم أرقامًا ووقَّعوا تحتها باسم معلِّمهم هتلر أو تلميذِه شارون، وساقوهم نحو السجن أو المحرقة.

يمرّون الآن في رام اللَّه، وكأنَّهم أسرةُ خرافة الهولوكوست. يُساقون إلى معتقل أوشڤيتز: فالخُرافة صُنعتْ لتطبَّقَ على سواهم فيما بعد... والأسطورةُ انزاحت من أمكنة وأزمنة لتسيل في أمكنة وأزمنة أخرى.

المقاومون المرقومون يمرّون على الشاشات وقد رُبطتْ أيديهم وراء ظهورهم على طريقة أسرى غوانتانامو. في الجهة الأخرى من شاشات التلفزة يرجع الآخرون ممرِّغين جباهَهم في تراب التسويات، ويَصْرخ الأسرى المرقومون بأغنيات وَهُمْ معصوبو الأعين.

تؤنسن أميركا القتلَ، وتؤسلب مفهومَ الشرّ، وتؤقلم الإرهابَ، وتؤفغن العراقَ، وتطبِّع الجريمةَ، ويشْهر حكماءُ صهيون لفائفَ البروتوكولات منذرين العصرَ بتحقق الوصايا.

* * *

خلاصةُ حديث الشرّ هي شرُّ ما يقال. وشرُّ ما يقال هو أنَّ الشرّ شرقٌ يفيض من جهات الشمس ويشير إلى بداية تاريخ القهر مرةً أخرى رغم غسق النهايات الهيجليَّة.

فهل نحن أشرارٌ بامتيازِ مقاومتِنا للفاشيَّة الجديدة التي تَعْتزم الترويجَ لديموقراطيَّة الموتِ بالأسلحة النوويَّة؟

إنَّ أَمْرَكَةَ الأرض هي آخرُ مرحلةٍ أو طبعةٍ للفاشيَّة الديكتاتوريَّة التي لا تسمع سوى خشخشةِ الأكفان وحشرجةِ الموتى. إنَّها نهايةُ تاريخ الأقطاب، وبدايةُ تاريخ المشروع الذي لا تاريخ له: مشروع صياغةِ العالم على وفق شهوةِ حذفِ كلِّ ثقافة وكلِّ فكرة وكلِّ مقاومة لينغمسَ العالمُ في سيولة دفّاقة دونما بوصلات أو نجمة قطب. هذه هي بداية الفوضى الشريرة ـ عندما تُلغى كلُّ النظريات، وتُصفَّى كلُّ المشاريع، من أجل طرح فكرة الدولة العظمى الواحدة المُخْضعة للأمركة التي تَنْتحر مراتٍ ومراتٍ بحروبها وأوهامها عن خير مُطْلق تَنْتمي إليه دولُ الغرب وعن شرٍّ مطلقٍ تدين به دولُ الشرق وحاضناتُ الإسلام والقوميَّات والمقاومة.

إنَّ مقولة أحد صانعي الميديا الأميركان حول ضرورة أن تبقى أميركا في قمّة العالم يُكمِّلها قولٌ آخر عن أهميَّة اجتثاث كلّ نزعة قوميَّة باعتبارها عَرَضًا لمرضٍ نفسيٍّ يَنْبغي علاجُه بالجراحة، ليَنْدرجَ الجميعُ في مدى مركزيَّةٍ تقاس بمعايير واحدة.

**بغداد**

**لطفية الدليمي**

روائيّة وقصّاصة ومبدعة عراقيّة.